المرحلة الأولى |٣٥٠٠ ـ ٢٩٠٠|
الشرق في فجر التاريخ

(قيام الحضارات التاريخية الأولى)

في القسم الثاني من الألف الرابع، وفيما كانت البشرية جمعاء، بما فيها الهند والصين، ما زالت ترزح في الليل النيوليتي، كان الشرق المتوسطي، وبعدما مزق شرنقته الإنيوليتية، يفتتح مرحلة جديدة في سياق تطور المجتمعات البشرية. إن شعوباً نصف بدوية أصبحت حضرية، مستقرة في الأرض التي تزرعها؛ فقامت مراكز مدينية؛ وظهرت دول منظمة؛ وأخيراً اخترعت الكتابة الرمزية التي تشهد على الحضارات التاريخية الأولى وتشكل منبع التقدم الفكري.

إن رواد هذه الثورة الرئيسية هم مصريو دلتا النيل وسومريو دلتا دجلة ـ الفرات، وكلاهما شعبان مركبان، مزيج مركّز من السكان الأصليين الحضر ومن الدخلاء المهاجرين.

A. الشرق في المرحلة الانتقالية للتاريخ أو الميتولوجية ـ التاريخية:

مصر، بلاد ما بين النهرين، لبنان. ـ المقرات الأولى للحضارة الزراعية والمدينية والمراكز الاولى للتجارة والدولة المنظمة

I. المظهر العام للشرق في المرحلة الانتقالية للتاريخ
المراكز الأولى للحضارة المدينية

١ ـ المرحلة الانتقالية للتاريخ في الشرق

إنتهى العهد الإنيوليتي وهو آخر عهد من العهود الثلاثة الكبرى لمرحلة ما قبل التاريخ الشرقية كما رأينا العام ٣٥٠٠ ق.م. وبين هذا التاريخ ومطلع الأزمنة التاريخية فإن العلماء المختصين يميزون في نطاق الشرق مرحلة إنتقالية تمتد من نهاية العهد الإنيوليتي حوالي العام ٣٥٠٠ وحتى اختراع الكتابة العام ٣٣٠٠ ق.م.

ما يميز بشكل خاص هذه المرحلة الانتقالية المكونة من قرنين تقريباً (٣٥٠٠ ـ ٣٣٠٠) هو الانتقال من حالة الأسرة والعشيرة الى التنظيم السياسي في مدن وممالك.

أ ـ الحضارة الانتقالية للتاريخ

إن حضارات ما قبل التاريخ الأخيرة في الشرق (٥٠٠٠ ـ ٣٥٠٠) أي الحضارة المصرية الإنيوليتية الثانية ومعاصرتها الحضارة الإنيوليتية في سوز الثانية هما، كما سبق ورأينا، صنيعة الشعوب الأصلية في كل من دلتا النيل وهضبة عيلام وقد جددا شبابهما بفعل الدماء العرقية القادمة من الخارج.

إن الحضارة الانتقالية للتاريخ التي تلت (حوالي العام ٣٥٠٠) تينك الثقافتين الإنيوليتين، كانت هي أيضاً من صنع سكان دلتا النيل والفرات وقد تجددوا بفعل غزوات أو هجرات أجنبية[1].

1 Voir A.Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 86.

في وادي النيل تزامنت المرحلة الانتقالية للتاريخ في الواقع مع دخول عناصر سامية الى الدلتا وتجمع مختلف الامارات المصرية المحلية التي كانت مستقلة حتى ذلك الحين، في مملكتين مركزيتين إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب.

وأما في بلاد ما بين النهرين فقد جاءت الحضارة الانتقالية إثر هجرات الأسيانيين السومريين والساميين السابقين للأكاديين الى بلاد ما بين النهرين وإعادة إعمار البلاد في أعقاب كارثة الطوفان والمعارك الدامية التي شنّتها مدن بلاد ما بين النهرين المختلفة على بعضها بعضاً لتحقيق السيادة على البلاد.

ب ـ الحضارة التاريخية الأولى

ومن جهة أخرى، فإن الحضارة التاريخية التي بدأت مع اختراع الكتابة (نحو ٣٣٠٠) كانت بدورها نتيجة تنقلات شعوب وتركيز أكبر للسلطة السياسية في مصر وبلاد ما بين النهرين.

فحوالي العام ٣٣٠٠ قام ملوك مصر الجنوبية الغيارى من ازدهار مصر الشمالية وقوتها والقلقون من تسرب العناصر الآسيوية بأعداد كبيرة الى الدلتا، باحتلال مصر الشمالية بقوة السلاح بعدما دحروا الحاميين ـ الساميين ووحدوا المملكتين المصريتين تحت سيادتهم.

وحوالي التاريخ نفسه وفي بلاد ما بين النهرين لم يبقَ من المدن المستقلة العديدة، التي أنهكتها المعارك المضنية فيما بينها، سوى بعض العواصم الملكية الكبيرة التي تُدعى «مدن الملكية» (يحكم كلاً منها ملك). كما أن سكانها كانوا ينتمون الى مجموعتين جغرافيتين وعرقيتين ولغويتين متميزتين ومتعاديتين: بلاد سومر الآسيانية في الجنوب البحري وبلاد أكاد السامية في وسط البلاد.

وفي منطقتي النيل والفرات فإن اختراع الكتابة وقد جاء كنتيجة للتطور السياسي والثقافي والاجتماعي المنجز في تزامن تقريباً، خلال المرحلة الانتقالية للتاريخ، جاء ليشهد أيضاً على التطور المتوازي للعقل البشري. وقد استخدمت الكتابة أولاً لتدوين أسماء الملوك وأسهمت في توسيع دائرة عمل رؤساء مصر وبلاد ما بين النهرين وملوكهما في المكان والزمان.

ج ـ الفترة الفعلية للمرحلة الانتقالية للتاريخ

وهكذا حوالي العام ٣٣٠٠ ق.م. وصلت مصر وبلاد ما بين النهرين معاً الى عتبة التاريخ المعروف.

وهذا التاريخ أي سنة ٣٣٠٠ هو بلا ريب تقريبي لكن طابعه العريق نسبياً لا جدل فيه إذ لا يمكن في أي مكان آخر الارتقاء الى هذا المستوى البعيد في الماضي المعروف. في الشرق نفسه يشكل العام ٣٣٠٠ بالنسبة الى التاريخ المعترف به تاريخاً فاصلاً. فالأزمنة السابقة له لا تتبع التسلسل التاريخي بل إن قياسها ذو طابع آثاري أو جيولوجي أو كوني.

حتى بعد العام ٣٣٠٠ فإن التاريخ الشرقي سيظل الى فترة زمنية في خطواته الأولى. فقبل نهاية الألف الرابع كان أشبه بالمستحيل رسم حدّ فاصل أكيد بين صروح المرحلة الانتقالية للتاريخ وحضارتها وصروح أوائل مرحلة التاريخ وحضارتها. ولم تتوصل مصر وبلاد ما بين النهرين إلى البداية الفعلية للتاريخ المعترف به إلا حوالي العام ٣٠٠٠.

ولهذا السبب فإن المرحلة الانتقالية للتاريخ في دراستنا تمتد عملياً من العام ٣٥٠٠ الى العام ٢٩٠٠. وخلال هذه الفترة الضبابية التي تصل الى ستماية سنة سنشهد ولادة أول عالم شرقي تاريخي تمثله البلدان التالية: مصر أو كيمي، بلاد ما بين النهرين أو سومر ـ أكاد ولبنان أو بلاد نيغا.

وابتداءً من العام ٢٩٠٠ فإن هذه البلدان الثلاثة التي طبعتها بيئتها وماضيها المتعدد العصور بمظهر خاص، تابعت تطورها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي المتميز بين بعضها البعض خلال آلاف السنين القادمة.

٢ ـ المراكز الاولى المعروفة لحضارة المرحلة الانتقالية

طوال أقدم العهود التي يمكننا بلوغها، حوالي العام ٣٥٠٠، كان الشرق مقسماً خلال فترة طويلة الى مجموعتين بشريتين كبيرتين منظمتين هما: مصر وبلاد ما بين النهرين.

ومنذ أزمنة لا تعيها الذاكرة قامت مجموعات من الرعاة والصيادين بالفرار من الجفاف المتزايد في الهضبتين الأفريقية والعربية واللجوء الى واديي النيل والفرات.

وحوالي العام ٤٠٠٠ وربما قبل هذا التاريخ كان هؤلاء النيوليتيون قد نجحوا في زراعة الأراضي الخصبة التي احتلوها.

لذا فإن هؤلاء الرواد القدامى، من أفارقة في مصر وآسيانيين في بلاد ما بين النهرين، هم مؤسسو الحضارات الزراعية والمدينية الأولى التي يتصل تاريخها بلا انقطاع بتاريخ العالم الحديث.

وتتيح لنا الاكتشافات الحديثة أن نضيف الى هذين الموئلين من الحضارة الانتقالية أربعة مراكز أخرى تقع في المحيط الشرقي، وبرغم أنها أقل أهمية من المركزين السابقين غير أنها في مستوى قدمهما، وهي: لبنان (جبال/جبيل/بيبلوس) عيلام (سوزيان العتيدة)، شرق الأردن، النقب أو العربية الصخرية.

أ ـ مصر وبلاد ما بين النهرين مركزا حضارة مدينية وتجارة

منذ منتصف الألف الرابع، كانت بلاد ما بين النهرين ومصر موئلي ثقافة وحضارة زراعية ومدينية علاوة عن كونهما مركزي حياة تجارية نشطة جداً. فبحكم موقعها في قلب آسية الغربية، فإن بلاد ما بين النهرين تشكل مركز الثقل الاقتصادي في العالم الشرقي الأول المستفيق على الحضارة. وأما وادي النيل الممتد نحو الجنوب فهو يختزن منتجات أفريقيا الاستوائية والشرقية معاً. ففي هذين البلدين ازدهرت التجارة الداخلية بفضل المواصلات النهرية مما ساعد الى حدّ كبير في تطور حضارة كل منهما.

إن الصحارى والبحار التي تفصل مناطق النيل والفرات لم تمنع هذه المناطق من تبادل المواد الأولية والمنتجات المصنّعة، كما أن التبادل التجاري بين هذين القطرين جعل مراكز أخرى زراعية أو تجارية تزدهر في المناطق الوسيطة أو المجاورة: لبنان وعيلام وشرق الأردن والنقب.

ب ـ لبنان، عيلام، شرق الأردن، النقب:مراكز ترانزيت

طرق التجارة. ـ في الألف الرابع ق.م. كانت طريقان كبيرتان تؤمنان الاتصال بين وادي النيل ووادي دجلة ـ الفرات. كانت نقطة انطلاقهما من وادي الفرات الأسفل والخليج العربي وكانت تتجه إحداهما نحو الغرب فيما الأخرى نحو الجنوب. فكانت الأولى تجتاز شمال سورية وتنفذ الى جبال/جبيل (بيبلوس) فيما كانت الثانية تتجه نحو البحر الأحمر متوغلة في الصحراء السورية العربية أو تدور حول تلك الصحراء مارة بتدمر ودمشق وشرق الاردن والنقب أو العربية الصخرية. وكانت هذه الطريق الأخيرة في

الألف الرابع هي الأكثر سلوكاً كما تشهد على ذلك كثافة السكان والازدهار اللذان عرفتهما حوالي ذلك العصر منطقة شرق الأردن وضواحي العقبة والسويس. وأخيراً فإن بلاد ما بين النهرين تتصل من الجهة الشرقية بآسية الوسطى عن طريق هضبة عيلام.

لبنان.ـ منذ النصف الثاني للألف الرابع كانت منطقة جبال (بيبلوس) تصدر الأخشاب الى مصر وتشكل مركزاً نشطاً لتبادل المنتجات الآسيوية والمصرية.

عيلام.ـ هضبة عيلام أو سوزيان الإغريق أو عربستان المشرفة على الضفة الشرقية لحوض نهر دجلة الأسفل والتي تمتد حتى سفح جبال زاغروس، هي امتداد لوادي النهرين. كما أن تاريخ هذه المنطقة الإيرانية يختلط بتاريخ منطقة بلاد ما بين النهرين. إن استيطانها من قبل الانسان هو سابق لاستيطان منطقة الفرات. فحوالي العام ٣٥٠٠ ق.م. كما رأينا كانت حضارة سوز الثانية الإنيوليتية تشع فيها من إيران حتى سيناء. ومنذ هذا العهد وصاعداً لعبت عيلام دور الوسيط بين إيران وبلاد ما بين النهرين.

شرق الأردن.ـ كشفت أبحاث غلوك أن شرق الأردن الحالي الذي كان غنياً ومأهولاً حوالي العام ٣٢٠٠ شهد حتى العام ٢٢٠٠ حياة اقتصادية متطورة على أساس ريفي كما يبدو. وقد ساعدت ظروف هذه المنطقة المناخية وموقعها على الطريق البرية الموصلة بين الفرات والبحر الأحمر، الساميين البدو القادمين من الصحارى المجاورة للاستقرار فيها منذ أزمنة ما قبل التاريخ، وكذلك لاحقاً أيام نبطي بترا فحققوا ازدهار هذه المنطقة زراعياً وتجارياً.

النقب.ـ وأخيراً في النقب أو العربية الصخرية على الضفاف الشمالية للبحر الأحمر استقر ساميون آخرون هم طلائع الفينيقيين العتيدين قبل هجرة بعضهم نحو سواحل المتوسط، وانصرفوا منذ ما قبل العام ٣٠٠٠ الى التجارة البرية والبحرية مؤمنين الاتصال بين سورية وبلاد ما بين النهرين والجزيرة ومصر وبلاد البنط (اليمن والصومال). ومنذ تلك الأزمنة الانتقالية للتاريخ أثرى أجداد الفينيقيين هؤلاء من استيراد المنتجات المجلوبة والغريبة وتصديرها بالقوافل والسفن إما شمالاً أو جنوباً. وكانت اتصالات مصر البحرية مع آسيا الأمامية عن طريق البحر المتوسط أو إريتريا قد بدأت لكن التجارة في ذلك العهد يبدو أنها آثرت الطرق البرية.

٣ ـ خاتمة

علاوة على البلدان التي ذكرناها لا نجد في المناطق الشرقية الاخرى أي أثر لحضارة حقيقية. ففي آسية الصغرى واليونان وأوروبا وأفريقيا وآسية استمرت الأزمنة النيوليتية.

وأما في الصحارى والسهوب التي تفصل مصر عن سورية وبلاد ما بين النهرين والتي تمتد نحو الجنوب فكان يعيش جار متنقل ومجهول الهوية هو بدوي الهضبة السورية ـ العربية الذي يخشاه الحضر بسبب ما يخلف من دمار وخراب إثر مروره. وإن التوراة تجسد البدو بشخص اسماعيل فتعبر عن الحقد والهلع اللذين يزرعهما في نفوس الحضر فتقول عنه: «إنه رجل متوحش، يده ضد الجميع، ويد الجميع ضده».

وهكذا جمعت الطبيعة في مفترق طرق العالم القديم هذا، الشعوب والحضارات التاريخية الأولى. وإذا كانت كثافة السكان في كل من واديي النيل والفرات تُعزى الى غنى أرضهما الفائق والى صناعة سكانهما،فإن كثافة سكان لبنان وشرق الأردن في منتصف الألف الرابع تعود بخاصة الى مركزهما ودورهما كوسيطين. ولقد حافظ لبنان بحرص على دوره هذا كهمزة وصل طوال العهود اللاحقة.

وسنقوم حالياً بإيراد صورة إجمالية عن مظهر كل من مصر وبلاد ما بين النهرين ولبنان في المرحلة الانتقالية للتاريخ منذ البدء وحتى العام ٣٠٠٠ ق.م. إن هذه البلدان الثلاثة هي في الحقيقة البلدان التي كانت تتمتع بدور بارز بقي شبه مستمر طوال العهود المقبلة. وسننهي هذه النبذة بوصف للعالم السامي البدائي أو البدوي الذي كان يحتل حوالي ذلك العصر الهضبة السورية ـ العربية والذي كان لهجراته تأثير حاسم في كثير من الأوقات على تطور الشرق الحضاري ومصائره.

II. مصر ما قبل السلالة الثينيسية: المملكة الثنائية |٣٥٠٠ ـ ٣٣٠٠|

بين العام ٣٥٠٠ و٢٩٠٠ عرفت مصر خلال الفترة الإنتقالية للتاريخ مرحلتين واضحتين من النمو السياسي، الأولى تجسد كما سبق وقلنا تجمع مختلف إمارات الدلتا والوادي في مملكتين متجاورتين ومتميزتين، هما مملكة الشمال ومملكة الجنوب. هذه المرحلة تُعرف عامة بالمرحلة ما قبل السلالية أو ما قبل الثينيسية (٣٥٠٠ ـ ٣٣٠٠).

وأما المرحلة الثانية فتبدأ مع التوحيد الجغرافي والسياسي للمملكتين المصريتين في ملكية موحدة ومركزية تحت سلطة السلالات الثينيسية أو الجنوبية. إنها المرحلة التي تدعى المرحلة السلالية أو الثينيسية (٣٣٠٠ ـ ٢٩٠٠) والتي انتهت بقيام أمبراطورية ممفيس القديمة.

١ ـ الدلتا والوادي، المملكة الثنائية

أ ـ سكان وادي النيل في المرحلة الإنتقالية للتاريخ.

حوالي العام ٧٥٠٠ قبل عهدنا كان الكوشيون ـ الحاميون الممثلون اليوم بالبربر والصوماليين والغالا،منتشرين من الحبشة حتى دلتا النيل. هؤلاء الحاميون أو الشاميون أو الكيمي القدماء من رعاة وصيادين بدو ثم مزارعين هم الذين أنشأوا في وادي ودلتا النيل أول حضارة زراعية.

إن سكان وادي النيل هؤلاء، وهم أبناء شام أو حام الوارد ذكره في التوراة، يسمون أنفسهم رمتو كيمي أو «رجال الأرض السوداء» تمييزاً لهم عن البدو والحضر من سكان البلاد الصحراوية والجبلية والذين كان يسميهم الحاميون شاسو أو بدو وخاستيو أو غرباء. وقد شكل هؤلاء الحاميون حوالي العام ٣٥٠٠ برغم اختلاطهم بالأغراب شعباً

متجانساً متسماً بطابع النيل، استمر طوال تاريخ مصر الطويل. ومنذ البدء ظهر هذا الشعب كمزارع في الدرجة الأولى.

وأما اسم كيم أو الأرض السوداء فيطلق على وادي النيل بالمقابلة مع الصحراء التي هي الأرض الحمراء. وتسميه النصوص المسمارية والعبرية والأشورية باسم سامي لا يزال مستعملاً حتى الآن وهو مصر (مزري، مزرائيم أو موزور).

وإذا كان تاريخ مصر يظهر وحدة بمثل هذه الروعة، برغم دوامه الطويل والحقب المضطربة التي عرفها، فلأنه متصل بتاريخ النيل. فنظام النهر صاغ التضامن بين سكان ضفتيه قبل قرون عديدة من نظام الملكية الموحدة والسلطة المطلقة والإدارة المركزية. فضلاً عن ذلك، وفي حين تعمل التقاطيع الجغرافية عادة على رسم حدود الدوائر الإدارية، تعمل في مصر تعرجات النهر بالأخص على تقسيم الأرض أو تحديدها.

ب ـ مصر التوأم تشكيلان سياسيان متميزان.

منذ مطلع العهد الإنتقالي للتاريخ كانت المنطقتان الطبيعيتان في مصر أي الوادي والدلتا تشكلان مملكتين متميزتين سياسياً، وكانت مدينة بوتو عاصمة الشمال ومدينة الكاب عاصمة الجنوب. وملوك هاتين المملكتين سيُنظر إليهم من قبل المصريين اللاحقين كأبطال أو زعماء أسطوريين يجمعون بين الطبيعة الإلهية والإنسانية وينسبون إليهم سني ملك مديدة جداً وقدرة فائقة الطبيعة.

إن تينك المملكتين التي يملك كل منهما سلالتها الملكية وإلهها السلالي الخاص كانتا على عداء الواحدة ضد الأخرى وفي عراك مستمر فيما بينهما. وفيما كانت المملكتان مختلفتين في أحوالهما الطبيعية والمناخية غير أنهما كانتا تكملان بعضهما بعضاً إقتصادياً ولا يمكن فصلهما عن بعضهما. إن هاتين المنطقتين شكلتا بإستمرار خلال العصور القديمة حتى إثر توحدهما النهائي (حوالي العام ٣٣٠٠) نوعاً من الملكية الثنائية المؤلفة من وحدتين متميزتين ولكل منهما إدارتها الخاصة بها.

إن الشخصية الخاصة بهذين الشقّين من مصر وتعرفان أيضاً بالأرضين أو البلدين استمرت طويلاً جداً خلال العهود التالية. لذا كانت الدلتا والوادي تنفصلان عن بعضهما بعضاً باستمرار كلما ضعفت السلطة المركزية، أو في فترات الانحطاط.

٢ ـ الآلهة والملوك ـ الآلهة في مصر ما قبل الثينيسية.

الأصل الإلهي للسلطة السياسية. أوزيريس أول ملك بشري متأله.

أ ـ الملوك الأسطوريون أو السلالات الإلهية.

تذكر الروايات أن ملوك مصر في المرحلة الانتقالية للتاريخ كانوا آلهة تحدروا من جد واحد، وخالق أوحد، هو الشمس خالقة العالم والآلهة. وقد حكمت بلاد النيل ثلاث سلالات إلهية خلال مرحلة ما قبل التاريخ الطويلة جداً. السلالتان الأوليان كانتا سلالتي آلهة كونية تمثل الأرض والشمس والسماء والهواء والماء إلخ... وأما الثالثة فتتألف من أنصاف الآلهة أو أبطال أي أشخاص، أبناء آلهة، ومؤلهين بفضائلهم. وأما الملوك البشر وبدءًا من مينيس (٣٣١٥) فهم وَرَثة هؤلاء الملوك الإلهيين وخلفاؤهم.

ب ـ الطواطم، الآلهة والملوك الآلهة.

إن هذا التفسير الديني لأصول السلطة كان من صنع كهنة هليوبوليس لاحقاً ممن سعوا لإيجاد عقيدة سياسية ملائمة لمعتقداتهم. وفي الحقيقة كان الزعماء المحليون الأوائل طواطم أي أشخاصاً أو أشياء تضفي عليها جماعة منطقة ما طابعاً مقدساً وسلطة مطلقة.

إن التقسيمات الجغرافية لمصر في المرحلة الانتقالية للتاريخ والتي سُميت لاحقاً بالولايات كان لكل منها شعار وشفيع هو حيوان أو نبات أو أي شارة. وكانت أسماؤها تحدد إما السكان أو على الأقل المناطق المحلية: الصقر، الثور، أبو منجل (طائر)، البطم، الصولجان، المزهر، السهم (النبلة)، الجبل إلخ... وبعد تشكيل المملكتين الشمالية والجنوبية فإن ولايات كل مملكة كانت تعترف بسيادة طوطم الزعيم السلالي.

ج ـ مصر التوأم وطوطم كل منهما: سيت في الجنوب وحورس في الشمال.

كانت أومبوس وهي مدينة في الجنوب، معبداً للإله سيت وهو حيوان طوطمي ويمثل بشكل جسم إنسان ورأس كلب سلوقي وقد رقي ليحمل لقب سيد أرض الجنوب وسيد السماء.

في الدلتا كان يقوم بالدور نفسه إله طوطمي الأصل يمثله صقر وهو طوطم مدينة بوتو ويسمى حور أو حورس. ويقول العالم موريه إن كلمة حور هي سامية وتعني الصقر وأما زوجته حت حور فتعني مسكن حورس.

وبعد نحوهما الى أخوين عدوين، فإن الإلهين سيت وحورس، واللذين تقدم عداوتهما مادة خصبة لروايات عديدة في الميثولوجيا المصرية، تصالحا أخيراً على يد غيب إله الأرض. وقام هذا بتعيين سيت ملكاً على الجنوب وحورس ملكاً على الشمال.

«إن الرواية الأسطورية تبرز ذكرى الصراعات القديمة العهد على السلطة بين الدلتا والوادي... وأما التحكيم النهائي لغيب فيرمز الى اتحادهما الحتمي. وسيكون هذا أحد مبادىء سياسة الفراعنة. منذ مينيس الثينيسي (٣٣١٥) تكرس الألقاب البروتوكولية مملكة ثنائية تحت حكم ملك واحد»[2].

د ـ أسطورة أوزيريس، إله الزراعة وأول ملك بشري مؤله

وهناك أسطورة ثانية تالية لمرحلة العداوة بين حورس وسيت يستشف منها توحيد محتمل للمنطقتين المصريتين في المرحلة الانتقالية للتاريخ، وهي أسطورة أوزيريس أول ملك أسطوري لمصر موحدة، الإله الزراعي وروح النبات والنيل. ومع أوزيريس، تنتقل من الإله الطوطم الى الملك البشري المؤله.

وإذا أخذنا أسطورة أوزيريس نرى أن أول توحيد لبلاد النيل في المرحلة الانتقالية للتاريخ لم يتم لصالح حورس إله الشمال وغريمه سيت بل لصالح أوزيريس وهو زعيم أو فاتح أسطوري للدلتا جاء كما يبدو من الشرق. ويعلق موريه على هذا بقوله: «كانت الدلتا، وفي كل العصور، تتلقى بالفعل عواقب ما يحصل في سورية أو ليبيا».

ففي الدلتا الشرقية كان سكان من الرعاة والمزارعين، يطغى عليهم العنصر السامي، يشكلون اتحاد طواطم وعشائر، سمي بالاتحاد الشرقي حوالي العام ٣٥٠٠ ق.م. وكان يتزعم هذا الاتحاد رجل يعتمر ريشتين (التاج) ويحمل بيديه عصا الراعي وسوط البقّار وهما الشعاران المقبلان للملكية؛ وكان اسم هذا الرجل عنت زي ومعناه «الحامي»، مما يدل على صفته كزعيم أسمى. وتشكل في الدلتا الغربية اتحاد آخر سمي باتحاد الغرب وقد أسسه المصريون ـ الليبيون.

2 A. Moret, *L'Egypte pharaonique*, p. 60, 61.

ويصبح أوزيريس، وهو زعيم عشيرة جاء ربما من بيبلوس في فينيقيا، زعيماً للإتحاد الشرقي؛ ويستعير من عنت زي تاجه المصنوع من الريش وشاراته (العصا والسوط) ويقيم في بيته الذي يسميه «بيت أوزيريس» (بوزيريس لاحقاً). ويظهر أوزيريس، بعدما حجب عنت زي، في القصص الكلاسيكية من الأدب المصري كبطل قومي وهو في الوقت نفسه ملك وإله، حقق وحدة الدلتا السياسية أولاً ثم وحدة المنطقتين المصريتين في المرحلة الانتقالية للتاريخ[3].

ثم بعد حورس إبن أوزيريس ووريثه، حكم أنصاف آلهة سموا بخدم حورس. وجاء بعدهم بدءاً من العام ٣٣٠٠ الملوك الثينيسيون وهم أول ملوك تاريخيين.

إن الأصل الآسيوي، وربما اللبناني، لأوزيريس يؤكده كون ملك ما قبل التاريخ هذا، الذي صار إلهاً زراعياً وروحاً للنبات، كان يمثل أصلاً بشجرة صنوبرية هي شجرة الزند. «إنها شجرة غريبة عن مصر ولكنها مستوردة من لبنان على مراكب بيبلوس التي تعود صلاتها مع الدلتا إلى أقدم العصور. كما أن بعض حلقات أسطورة أوزيريس تدور في بيبلوس (جبيل)، حيث كان الجبيليون يعبدون أدونيس روح النبات الذي يُقتل كل صيف ويولد من جديد في الربيع. إن مأساة الموت نفسها والولادة نفسها تحصلان مع أوزيريس»[4].

٣ ـ خاتمة

«إن مصر في المرحلة الانتقالية للتاريخ والتي بقيت شبه مجهولة، تبدو لنا كأنها بؤرة متأججة بالأعراق المتزاحمة والأفكار التي هي في طور النمو. وقد نجحت العشائر الطوطمية من الحاميين-الليبيين في الجنوب في إقامة ملكية هناك، فيما قابلتها في الدلتا عشائر سامية ـ متوسطية بإقامة مملكة لها في الشمال. ومن ضمن العناصر الأخرى هناك ليبيو الدلتا الغربية الذين أسسوا ممالك محلية عديدة (إتحاد الغرب) في حين مهد ساميو وأرمينويد الدلتا الشرقية (إتحاد الشرق) للملكية الموحدة. وقد نجح هؤلاء في فرض زعماء كعنت زي ـ أوزيريس على مصر كلها، استندت سلطتهم البشرية على القوتين الطبيعيتين الكبيرتين اللتين تحكمان مصر وهما: النيل

3 Voir, dans Moret, *L'Egypte pharaonique*, p. 63 — 64, des considérations sur les éléments de réalité que traduit la légende d'Osiris.
4 Moret, *L'Egypte pharaonique*, p. 64.

المغذي ومنظم الازدهار، والشمس راع المنسق الأعلى للعالم بأسره وخالق مصر والكون.
إنهما نفوذ مزدوج سيستخدمه مؤسسو السلالات الثينيسية فيما بعد لحكم البشر»[٥].

5 Mazet, *L'Egypte pharaonique*, p. 67.

III. مصر السلالية ـ مملكة متحدة |٣٣٠٠ـ٢٩٠٠|
الدلتا والوادي، ملكية ثنائية

١ ـ المراحل الكبرى من التاريخ المصري. مراحل الأمبراطورية والمراحل الوسيطة

منذ الملك مينيس (٣٣١٥) أول ملك موحِّد لمصر وحتى الفتح الإغريقي لها (العام ٣٣٣)، تعاقب نحو ١٩٠ ملكاً أو فرعوناً على تولي عرش مصر. ان هذه السلسلة الطويلة من الملوك الذين يناهز عدد سنوات حكمهم جميعاً الألفي سنة قد تم جمعهم على يد مانيتون وهو كاهن ومؤرخ مصري كتب باليونانية (نحو العام ٢٥٠ ق.م.) في إحدى وثلاثين سلالة ملكية.

أمّا المؤرخون المعاصرون، فقد أبقوا الخطوط الكبرى لهذا الترتيب، إلا انهم قسموا الألفي سنة هذه من تاريخ مصر إلى خمس مراحل كبرى تضم كلٍ منها عدداً معيناً من السلالات تبرز طباعاً مشتركة إلى حد ما. إن هذه المراحل الكبرى تُعرف عادة اليوم على الوجه التالي: الأمبراطورية السلالية أو الثينيسية (٣٣١٥ ـ ٢٨٩٥)؛الأمبراطورية القديمة (٢٨٩٥ ـ ٢٣٦٠)؛ الأمبراطورية الوسطى (٢١٦٠ ـ ١٦٦٠)؛الأمبراطورية الجديدة (١٥٨٠ ـ ١٠٨٥) والعهد الأدنى (١٠٨٥ ـ ٣٣٣).

وبين هذه الأمبراطوريات أو الحقب المختلفة يدخل المؤرخون فترتين وسيطتين تشكلان نوعاً من الانقطاع: المرحلة الوسيطة الأولى (٢٣٦٠ ـ ٢١٦٠) وتفصل الأمبراطورية القديمة عن الأمبراطورية الوسطى،والمرحلة الوسيطة الثانية (١٧٨٨ ـ ١٥٨٠) التي تفصل الأمبراطورية الوسطى عن الأمبراطورية الجديدة.

أ ـ فحوى كلمة أمبراطورية

إن كلمة أمبراطورية التي نطلقها عامة على هذه المراحل المصرية القديمة لا يجب فهمها بالطبع بمعناها الحديث أي الدولة المركبة أو ذات الميول التوسعية لكنها تعني في الواقع مرحلة إستقرار في إطار وحدة سياسية وجغرافية. فالأمبراطورية المصرية، حتى حوالي أواسط الألف الثاني، هي بالفعل دولة غير مركبة أو دولة ـ أمة تجمع تحت سلطة الملك أو الفرعون بلاداً وسكاناً متجانسين.

وعلى هذا، فإن كلمة أمبراطورية إذا طبقت على الدول الفرعونية في تلك العهود القديمة فهي لا تعني ما تعنيه في تلك التشكيلات السياسية الموازية والانتقالية التي كانت تقوم ثم تختفي مداورةً في حوض دجلة والفرات. وكدول أساساً ذات تطلعات توسعية أو أمبريالية وميول إلى الهيمنة كانت الأمبراطوريات المابينهرية تشكل مجموعات عرقية غير متجانسة ومناطق جغرافية متباينة جمعت بالقوة تحت نير موقت أقامه فاتح ظافر.

٢ ـ قيام الأمبراطورية أو المرحلة السلالية (الثينيسية)

أ ـ مينيس أول ملك تاريخي لمصر الموحدة

قبل العام ٣٣٠٠ طرأ نزوح جديد من الساميين والليبيين فدخلوا الى الدلتا. وقد شدد هذا من عزم حوريي الشمال أو المصرو ـ ساميين فحاولوا الاستيلاء على أملاك حوريي الجنوب وتوحيد أرضيّ الشمال والجنوب لصالحهم. وتلافياً لهذا الخطر قام الملك سكوربيون ملك الجنوب بإحتلال الدلتا على جناح السرعة. لكن نارمير خلفه المحتمل هو الذي أنجز هذا المشروع. ومع نارمير إنتهت المرحلة الإنتقالية للتاريخ والمرحلة ما قبل السلالية؛ إذ تم اختراع الكتابة الهيروغليفية وبدأت معها الأزمنة التاريخية.

الملك مينيس ـ (٣٣١٥ ـ . . .) خلف هذا الملك، على ما يعتقد، الملك نارمير أو كان هو نفسه نارمير تحت إسم ملكي جديد،وهو الموحِّد الحقيقي لأرضي مصر ومؤسس أول سلالة ملكية. إنه واضع مبادىء أول قانون ملكي وأول من أوجد إدارة مركزية.

وظلت مصر أمينة على ذكرى أول ملك حقق وحدتها. وخلال آلاف السنين

كانت كل عملية تتويج لملك تحتفل بذكرى هذا الحدث الجوهري وخلال الزياحات الكبرى كان تمثال مينيس يرفع خلال التطواف على رأس التماثيل الملكية.

ويعرّف الكاهن مانيتون مينيس وخلفاءه بالثينيسيين تيمناً بمدينة ثينيس مقر هؤلاء الملوك أو مثواهم الأخير. وإن السلالات الثينيسية وعددها اثنتان حكمت مصر أكثر من أربعة قرون (٣٣١٥ ـ ٢٨٩٥) وإن تاريخ هذه الحقبة لا يزال غامضاً. فالكتابات تسمح لنا بأن نؤكد أن مصر الثينيسية لا تختلف بشيء عن مصر ما قبل التاريخ التي سبقتها. بيد أن شخصية بعض الملوك بدأت تبرز بشكل أوضح.

وقد إتخذ الملك مينيس كأول إسم ملكي له اللقب الطوطمي «صقر حورس» الذي كان يحمله أسلافه ملوك الشمال. كما أن هناك ألقاباً أخرى ثنائية ركبت لتصف ملك الأرضين أو سيدهما وهي: قصبة الجنوب ونحلة الشمال (طواطم)؛ حامل التاجين، الأبيض (جنوب) والأحمر (شمال)؛ ملك البلاد العليا والمنخفضة. ولقد ظل هذا التقسيم الطبيعي مستمراً مع مراعاة هذا الإزدواج في بروتوكول مصر الموحدة، الذي لم يتغير فيما بعد.

وإثر العام ٢٨٩٥ «ظهرت ألقاب وأسماء ملكية أخرى... تشير الى الملك على أنه أيضاً تجسيد للشمس (راع) وأضيفت تلك الألقاب الجديدة إلى الألقاب الثينيسية من غير أن تمحوها... هذا وإن الملك مينيس من غير أن يلغي العواصم التقليدية ولا المقر الملكي، أنشأ عاصمة إدارية... واختار موقعاً بدراية «حيث البلدان يتعادلان وهو مدينة ممفيس (مين نيفر = المكان الصالح) أو ميزان البلدين»[٦].

وقد يكون نقل العاصمة نحو الشمال تحسباً لمراقبة الحدود مع فلسطين والطرق التي تؤدي الى شبه جزيرة سيناء فضلاً عن الرغبة بتكثيف العلاقات التجارية مع بلاد نيغا (لبنان) ومدينة كيبان (جبيل اللبنانية) والتي كانت تصدر الأخشاب الى مصر.

ب ـ ملكية ذات منشأ إلهي.

وهكذا وبعد دمجه بحورس صار مينيس يقلد الشعائر الملكية والشروقات المهيبة لإله الشمس راع واستعار صولجان أوزيريس وتيجانه ولباسه، وهي رموز الملكية الإلهية والبشرية. وكانت سلطته مطلقة[٧].

6 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 185, 186.
7 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 188.

٣ ـ السلالتان الثينيسيتان (٣٣١٥ ـ ٢٨٩٥)

لقد تمتع مينيس وخلفاؤه من السلالة الأولى وعلى امتداد قرنين تقريباً بفترة سلام وازدهار وتنظيم لا تختلف أبداً عما نَعِم به خلفاؤهم من ملوك السلالة الثانية. سياسة تهدئة وإتحاد، وبعض الحملات التأديبية على سيناء التي كان المصريون يستغلون مناجمها وعلاقات إقتصادية مع جبيل ـ بيبلوس في لبنان: هكذا تبدو إجمالاً النشاطات المعروفة اليوم لأولئك الملوك المصريين في المرحلة الانتقالية للتاريخ.

وأما من السلالة الملكية الثانية التي حكمت قرابة القرنين أيضاً فتبرز شخصية ملكية عظيمة أخرى شبيهة بشخصية مينيس هو الملك خاسي خي موي (٢٩٠٠). فتحت سلطة هذا الملك أصبحت مصر تمتلك كل مواردها التقنية؛ وتم تحديد المواضيع والأشكال الفنية بشكل نهائي. وأما وحدة البلاد، التي هددت لفترة وجيزة، سرعان ما استعادت سابق عهدها، وظلت العلاقات مع جبيل ـ بيبلوس على نموها المضطرد.

وكان خاسي خي موي، الذي سحق تمرداً لحوريي الشمال قد أنهى قتاله هذا بمصالحة البلدين. وأما سلفه بيري بسين، وقد عزم على الخلاص من الشكل الثنائي للدولة، بإنشائه إدارة مُحكَمة المركزية، فقد ألغى إسم حورس إله الدلتا وعبادته لصالح الإله الوحيد سيت الشفيع الإلهي للجنوب. كما ان الملك بيري بسين، الذي كان قد تخلى عن العاصمة ثينيس متخذاً عاصمة جديدة هي أبيدوس، استبدل أيضاً اسم حورس وهو أقدم الألقاب الملكية باسم سيت.

هذا الاصلاح السياسي ـ الديني، وهو محاولة أولى للتوحيد الإلهي الديني كان قد أثار ردَ فعلٍ عنيفاً عند أهل الدلتا عَبَدة حورس وتبع ذلك حرب بين جانِبَي أو منطقتي البلاد. وقد رأى خاسي خي موي خلف بيري بسين والمنتصر على الشمال أنه من الأجدى إجراء مصالحة مع أخصامه فأعاد للإله حورس حقوقه وإمتيازاته الإلهية. فصار الملك بعدها هو حورس وسيت معاً وعاد يعلو واجهة القصر الملكي الصقر والكلب السلوقي المتواجهان وهما شعار طوطمي لكل من الإلهين. «فذهنية المصريين التقليدية كانت ومنذ تلك الفترة البعيدة تاريخياً تكره كل تغيير في التوجه الديني»[٨].

8 Drioton et Vandier, *L'Egypte*, p. 145.

وتحت سلطة الملوك الأول للأمبراطورية القديمة صار مفهوم الوحدة الجغرافية والسياسية مألوفاً أكثر لدى سكان بلاد النيل. فانتقلت عاصمة الأمبراطورية إلى ناحية الشمال وزاد نفوذ الدلتا ومصر الوسطى. هكذا فرض حورس وحده كإله سلالي ومنتصر على سيت. وخلف حورس فيما بعد كإله سلالي، الإله الشمس راع ، إله هيليوبوليس ومصر الوسطى. وكان لكل من الحقب أو الامبراطوريات الكبرى التالية إلهها السلالي والقومي المختلف عن سلفه.

٤ ـ إدارة الملوك الثينيسين وسياستهم.

كان القصر الملكي أو «البيت الكبير» أو «بير آع» الذي بات يرمز الى الملك نفسه بدءاً من العام ٢٨٤٠ (السلالة الرابعة) هو مقر الإدارة المركزية[٩].

وكان هناك وزير أعلى (تاتي) ومدير للفيضان وحامل للأختام الملكية ومهندس معماري ملكي وقائد للجيش وأمير أول مرافق للملك. وكان الملك هو الذي يؤمن الطعام لشعبه. وأما اهتمامه الطاغي فكان الإفادة إلى أقصى حدّ من فيضان النيل.

فيما ظلت الإدارة تتسم بالإنقسام التقليدي الثنائي. إذ كان هناك «البيت الأبيض» للوادي و«البيت الأحمر» للدلتا. وأما أملاك الملك، وقد كانت واسعة جداً في البدء، توصلت الى أن تشمل كل الأراضي المصرية. وأصبحت الأهمية بعدها محصورة بالملك وأسرته وكبار موظفيه.

كان الحفاظ على وحدة السلالة والأرض التي كان يحاربها أنصار التقاليد القديمة هي الشغل الشاغل للسياسة الثينيسية. وبقيت هذه الوحدة مُصانة بقوة السلاح. وقد زادت الخصومات الدينية بين عَبَدة سيت وعَبَدة حورس، الخصومة التقليدية بين الشمال والجنوب.

اقتصرت سياسة الثينيسين الخارجية على تحصين الحدود، وبخاصة «بوابة الشرق» أي برزخ السويس. وخارج وادي النيل، احتلت فقط مناجم النحاس والفيروز في سيناء، والتي انتزعت من بعض القبائل المتأخرة؛ وكان يقوم عمال مناجم، يحرسهم جنود، باستثمارها منذ نحو العام ٣١٣٥. وأما في جبيل ـ بيبلوس فقد تم اكتشاف حجر اسطواني ثينيسي يؤكد العلاقات القائمة تلك الفترة بين مصر ولبنان.

(٩) ان تسمية بير آع هذه، الرائجة جداً في مصر، والتي أصبحت فارو وفرعون في النسخة العبرية من التوراة، هي الكلمة المستعملة في اللغات الحديثة.

إن نهاية المرحلة الثينيسية حوالي العام ٢٩٠٠ تحدد تاريخ بدء الأمبراطورية القديمة (٢٨٩٥ ـ ٢٣٦٠) أو أمبراطورية ممفيس ومجيء الملوك أو الفراعنة بُناة الأهرامات الكبرى.

٥ ـ الطابع الأصيل للحضارة الثينيسية.

يُذكر أنه خلال القرون الأربعة من العهد الثينيسي حصل تغيير جوهري في الحالة العامة لبلاد النيل. فالحضارة، وقد بلغت مرحلة متقدمة جداً من التطور في ظل حكم السلالة الثينيسية الثانية، بقيت على تطورها فيما بعد بحيث صارت موضوع مجد وعظمة ملكية ممفيس المقبلة.

وعن تلك الحضارة الثينيسية التي أسهمت في احداث تطور سوف تفيد منه لاحقاً البشرية جمعاء، يقول العالم موريه واصفاً طابعها الأصيل: «إن ابتكارات العهد الثينيسي تتسم بفرادة أخّاذة على الصعيد الاجتماعي والسياسي والديني والفني. فالمؤسسات الملكية تظهر فيها نقوش لا تتجلى معالمها بمثل ذلك الوضوح في أي مكان آخر... الدين تطور من المعتقدات الطوطمية للآلهة العالمين، وأما أسطورة الزراعة وأسطورة الشمس اللتان تتابع تكوينهما بشكل متوازٍ فقد استوحيا طابعهما من الظروف الطبيعية للأرض والبيئة. ولو افترضنا أن الآلهة حت حور وحورس وأوزيريس قد استوردت من سورية أو من البنط فإنها ومنذ البدء بدت وكأنها غدت على أيدي المصريين القدامى من اختراعهم وحملت طابع بلادهم. وأما الفن، في تمثيل الآلهة والملوك، فإنه يظهر مفاهيم أصيلة. وقد أنشأ هذا الفن أسلوباً صارماً ذا مواضيع مميزة الى درجة انها ظلت تنفذ على الوتيرة نفسها حتى نهاية الدولة المصرية. فنقوش النصر... والتماثيل الملكية... ومشاهد التتويج... والبروتوكول الملكي، كلها اختراعات أنجزت مرة واحدة ولم تتغير بعدها أبداً كما لم تتغير معها الطقوس التي أوحت بها.

وفي المقابل غابت عن الأيقونات المواضيع المتعددة المشتركة بين بلاد ما بين النهرين ومصر... فالعلاقات مع بلاد ما بين النهرين كانت أقل وداً. وقد أرسل الفراعنة حرسهم الى برزخ السويس الذي أصبح بعدها أكثر إنغلاقاً في وجه التقدم السامي. وأما المبادلات التجارية فكانت نشيطة: ففي جبيل ـ بيبلوس تم العثور على حجر أسطواني ثينيسي، وفي جزيرة كريت على أوانٍ حجرية وفخارية مصرية»[10].

10 A. Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 200, 201.

IV. بلاد ما بين النهرين في المرحلة الانتقالية للتاريخ، أو بلاد سومر

١ ـ سكان بلاد ما بين النهرين في المرحلة الانتقالية للتاريخ

كان هناك أربع مجموعات متميزة مستقرة في مناطق متجاورة تقيم في الألف الرابع في بلاد دجلة والفرات. وهي: في عيلام وبلاد ما بين النهرين العليا مجموعتان مجهولتان من عرق ألبي أو آسياني، أما في بلاد ما بين النهرين السفلى فكان يقيم السومريون، وأخيراً في الفرات الأوسط كان يقيم الساميون. وان تلك الشعوب المختلفة أرست بفضل نشاطها الفكري وطبعها الحاذق، وعلى الأخص السومريون والساميون منها، أساسات عظمة المدن المستقبلية والملكيات المابينهرية وحضاراتها.

أ ـ العيلاميون والسكان الأصليون الما قبل الأشوريين

العيلاميون ـ إن البلاد العيلامية أو عيلام بموقعها على شرق دجلة تنتمي جغرافياً وسياسياً الى الهضبات الإيرانية. بيد أن موقعها جعل منها امتداداً لبلاد ما بين النهرين. لذا فإن تاريخها وحضارتها هما جزء متمم من تاريخ منطقة بلاد ما بين النهرين وحضارتها. وسنرى أنه وخلال الفترات اللاحقة سيتنافس العيلاميون مع السومريين والساميين للسيادة على البلاد. كما سنرى لاحقاً كيف أن ملوك الفرس جعلوا من عيلام مركزاً سياسياً لأمبراطوريتهم مما يتيح لهم السيطرة على كل الشرق المتوسطي.

إن العيلاميين المقيمين على هضبة سوزيان العتيدة أو عربستان الحالية هم

البيون أو آسيانيون من ذوي الرؤوس التي يزيد عرضها عن طولها وجبليون فضلاً عن كونهم خلفة السكان النيوليتيين الأصليين، وأما عرقهم المعروف بالأليي فمنتشر من الأناضول الى الخليج العربي. كانت صناعة المعادن عندهم أكثر تقدماً منها في مصر. وكان مركز هذا العرق ذي الموهبة المبكرة مدينة سوز العتيدة. وبدءاً من الألف الخامس إنتشر هذا العرق من بلاد ما بين النهرين إلى فلسطين. وقد انتزع السومريون دلتا النهرين من قسم من هذا العرق كما إنتزع ساميو الموجة العربية الأولى منطقة الفرات الأوسط منهم أيضاً.

الما قبل الأشوريين. ـ كانت مجموعات آسيانية أو ألبية أخرى نجهل اسماءها بعد قد إستقرت في منطقة ما بين النهرين العليا وهي المنطقة التي سيطلق عليها لاحقاً إسم أشور. وهذه الشعوب المجهولة الهوية شكلت ذات يوم بإمتزاجها مع شعوب من الساميين والشماليين أرومة الأشوريين اللاحقين الذين أسسوا نينوى وشادوا أول أمبراطورية شرقية كبرى هي الأمبراطورية الأشورية.

ب ـ السومريون والساميون المهاجرون

حوالي مطلع الألف الرابع غمر الآسيانيين من السكان الأصليين القاطنين في بلاد ما بين النهرين السفلى موجة آسيانيين آخرين قادمين من الخارج هم السومريون، وأصلهم من آسيا الوسطى أو سهوب سيبيريا. واحتل هؤلاء المهاجرون الجدد دلتا النهرين. ثم تبعتهم بعدها مجموعات من عرق آخر هم الساميون القادمون من الجزيرة العربية وقد أقاموا الى شمال أراضي السومريين. ومنذ أقدم العصور ونحن نلاحظ في بلاد ما بين النهرين تجاور هاتين المجموعتين العرقيتين.

السومريون. ـ يتميز السومريون بعبقريتهم في التنظيم وروحهم الخلاّقة وحيويتهم وذكائهم. هم الذين استصلحوا بصبر مناطق المستنقعات وأخصبوا صحارى حقيقية. وبواسطة القنوات والسدود أنشأوا نظام ريّ بارعاً، كان وراء الثراء الضخم الذي نعمت به بابل العتيدة والذي تثير آثاره اليوم دهشة علماء المياه المعاصرين الذين يستوحون منه. وكانت بلاد ما بين النهرين تعرف باسم سومر في تلك الحقبة القديمة سواء من سكانها انفسهم أو جيرانهم.

إن حياة السومريين المدينية تظهر من الحواضر التي شادوها كمدينة أوروك وتسميها التوراة إريخ، وأور الوطن العتيد لابراهيم الخليل، وإريدو ونيبور إلخ. . . وكان السومريون مبتكري قوانين وأساطير وطقوس دينية، إلا أن اختراعهم الأشهر والأكثر نفعاً ومحط اعتزازهم الحقيقي، فكان الكتابة المسمارية التي تزامن اختراعها تقريباً مع الكتابة الهيروغليفية في مصر ،فحددت في البلدين نهاية مرحلة ما قبل التاريخ.

ساميو بلاد ما بين النهرين.- إن ساميي بلاد ما بين النهرين أو الأكاديين عتيداً هم بدو الجزيرة العربية الأولون الذين استقروا وتجمعوا بأعداد كبيرة للاستيطان في بلد زراعي.

وكانت هجرتهم بفعل الجفاف الذي ضرب الجزيرة العربية وتصاعد منذ الألف الرابع، مما دفع هؤلاء الساميين البدائيين أو البدو من أبناء الجزيرة الصحراوية الى البحث عن مكان سكن أكثر تلاؤماً. فبدأوا في حوالي ذلك التاريخ بمغادرة سهوبهم. وقد رأيناهم مرات متكررة يحاولون التسلل الى دلتا النيل حيث كانوا ينجحون أحياناً. وكانوا تارة يتعاركون على الحدود المصرية مع القوات المصرية الحارسة بوابة الشرق والمكلفة وقف تقدمهم وطردهم، وطوراً داخل الدلتا حيث كانوا يحرضون الشماليين على الجنوبيين سكان وادي النيل. وإن عبادة الإلهين المصريين حورس وأوزيريس قد تكون أرسيت في مصر بفضل هجراتهم(١١).

وكانت مجموعة أو أكثر من هؤلاء الساميين الرُحّل، وقد جذبهم إزدهار بلاد سومر الناشيء، قد استقرت في الفرات الأوسط على مقربة من السومريين. وهؤلاء الساميون الأول الذين استقروا بأعداد كبيرة مكونين أرومة الأكاديين والبابليين - الأشوريين العتيدين يشكلون الجزء الأساسي من أول موجة توسع سامية خرجت من الجزيرة العربية قبل قرون عديدة باتجاه الأراضي الزراعية. وأما المجموعات الأخرى من هذه الموجة الأولى الكبيرة والمهاجرة الى مصر أو المتسللة الى سورية، فقد اندمجت

(١١) ان اللغات السامية والدم السامي، أسهمت دون ريب في تكوين اللغة والشعب المصريين في العصر الانيوليتي. لكن قوة الاستيعاب التي عرفت بها ارض النيل تغلبت دوماً على كل العناصر الدخيلة (اشخاص، حيوانات او نبات). وهي تدمغهم في النهاية بدمغة موحدة، مختلفة عن دمغتهم الأساسية، مضفية عليهم سمة الطابع المحلي او المصري.

بالمجموعات السكانية الأصلية في البلدين المذكورين. وفي بلاد ما بين النهرين كانت مدينة كيش (قرب بابل العتيدة) بمثابة أقدم وأهم عاصمة سامية.

وهكذا كانت مدينة أوروك في سومر ومدينة كيش في أكاد، قبل العام ٣٠٠٠، عاصمتي البلدين والعرقين اللذين كان كل منهما يتكلم لغة مختلفة هما السومرية في الجنوب والسامية (الأكادية والبابلية مستقبلاً) في الشمال. وقد تبنى الساميون الكتابة السومرية أو المسمارية من غير أن يعتمدوا اللغة السومرية.

٢ ـ التنظيم السياسي

أ ـ الأصل الالهي للسلطة . الملوك ممثلو الآلهة

إن الأصل الطوطمي لآلهة بلاد ما بين النهرين بادٍ، كما هي الحال في مصر، من ألقاب بعض ملوك ما قبل التاريخ (النسر والعقرب والكلب والحمل) ناهيك بوجود آلهة حيوانات بين الآلهة الأولين أمثال الثور والحية والأسد والجاموس والنسر والعقرب. ولكن خلافاً لمصر ذات الطابع المحافظ أساساً والتي احتفظت بعبادتها للآلهة الحيوانات طويلاً فإن الآلهة المابينهرية وبدءاً من نهاية الألف الرابع أخذت تظهر بأشكال بشرية يصحبها حيوان ـ رمز يذكر بأصلها الطوطمي كالأسد والحية والثور. وبعد هذا صارت هذه الصور الحيوانية مخصصة للآلهة الثانويين فقط.

وبالرغم من أننا لا نستطيع قط تمييز حياة سياسية قديمة العهد في بلاد ما بين النهرين على غرار مصر إلا أن الأصل الإلهي للملكية في بلاد ما بين النهرين يظهر منذ أقدم العصور كعقيدة جوهرية هي أساس لكل سلطة على الأرض. لكن وخلافاً لمصر حيث الملك إله، وهو إياه الإله السلالي، فإن الملك الحقيقي في بلاد ما بين النهرين هو الإله المحلي وليس الملك البشري إلا ممثلاً له.

ب ـ سومر وأكاد بلدان متميزان

وتماماً كما في مصر حيث كان الدلتا والوادي يشكلان مملكتين متميزتين ومتجاورتين حتى العام ٣٣٠٠ كان الوسط والجنوب في بلاد ما بين النهرين، كما رأينا، يشكل كل منهما مجموعة جغرافية وعرقية ولغوية وسياسية متميزة هما دولتا سومر وأكاد العتيدتان. وكما كان هناك بلدان مصريان كان هناك أيضاً بلدان ما بين نهريين.

غير أنه خلافاً لأرض النيل حيث تحققت الوحدة السياسية والجغرافية نهائياً ابتداءً من العام ٣٣٠٠ ظلت بلاد ما بين النهرين، على العكس من ذلك، وإلى أمد طويل، محتفظة بمجموعتيها الجغرافيتين المتميزتين، وكان كل منهما يقسم هو أيضاً إلى مدائن أو حواضر ـ دول مستقلة ومتخاصمة.

ج ـ نظام المدن ـ الدول أو «مدن الملكية»

كان النظام السياسي في البلدين المابينهريين السومري وكذلك السامي هو نظام المستوطنات الزراعية التي كان يفصلها أصلاً مستنقعات. وكانت ملكية الأرض والمياه تثير بينهما نزاعات مستمرة. وكانت كل جماعة مستوطنة تتجمع حول مركز محصن هو المدينة حيث يرتفع معبد الإله المحلي وقصر الأمير.وكل مدينة تحاول فرض هيمنتها على المدن الأخرى: لذا، خلال أكثر من ألف سنة ظلت المعارك مستمرة. كانت السلطة العليا تنتقل الى الأقوى سلاحاً من مدينة الى أخرى. والمدينة الممسكة بالسلطة تصبح «مدينة الملكية». كان الباتيزي (النائب أو البديل) الرئيس الأرضي للمدينة وهو مفوض من قبل الإله المحلي، الذي هو الملك الحقيقي، ليحكم مكانه كنائب. ولم يتغير هذا الوضع إلا في الألف الثالث، عندما أعلن الباتيزي نفسه إبناً ووريثاً للإله. فإذا كان رئيساً لمدينة ملكية تمارس سلطة فعلية على البلاد بأسرها، فإن الباتيزي كان يتخذ لقب لوغال (رجل عظيم) ولقب شارو أو بيل: ملك وسيد. وكان رئيس الآلهة أنليل، السيد الإلهي العالمي يتزعم الآلهة المحليين وكان مقامه في نيبور، العاصمة أو الحاضرة الدينية التي لا دورَ سياسياً لها.

٣ ـ التقاليد الأسطورية لبلاد ما بين النهرين في المرحلة الانتقالية للتاريخ: قبل الطوفان وبعده.

في حين أن المرحلة الانتقالية للتاريخ المصرية تقسم في الألف الرابع الى مرحلتين واضحتين، الأولى سابقة للسلالية ولتوحيد البلاد (حوالي العام ٣٣٠٠) والثانية سلالية ولاحقة لهذا الحدث، غير أنها على العكس من ذلك، استمرت في بلاد ما بين النهرين تجزئة البلاد وطال عمر الفترة الانتقالية مدة أطول ولم يطرأ اي حادث له تأثير كبير من شأنه ان يصبح نقطة ارتكاز. فقط كارثة الطوفان (نحو العام ٣٦٠٠) التي أوقفت تطور العالم المابينهري تمثل علامة فارقة. هكذا وبرغم أن هذه

الكارثة متصلة بمرحلة ما قبل التاريخ فإن الجداول الملكية لبلاد ما بين النهرين تقسم الأزمنة البدائية الى حقبتين أسطوريتين: قبل الطوفان وبعده.

أ ـ قبل الطوفان

في أريدو التي كانت يومها على الخليج العربي بدأ الكون يخرج من العدم بحسب رواية أو قصيدة سومرية حول خلق العالم. وفي أريدو أيضاً نزلت الملكية من السماء للمرة الأولى لصالح ملكين سومريين ثم انتقلت بعدها الى مدن سومرية أخرى. وإن آخر ملك قبل الطوفان كان والد أوتانا بيشتيم أو نوح بلاد ما بين النهرين.

إن بلاد ما بين النهرين السفلى التي جففها ونزح ماءها، سكانها الأول من أصليين ومهاجرين تحضروا حديثاً غطتها الزراعات الغنية والمجمعات الزراعية والمدينية. وإن قرب المنطقة من البحر أعطاها زخماً إقتصادياً وتجارياً. فنشأت المدن من كل صوب. لكنها بسبب انعزالها عن بعضها بعضاً بالمستنقعات، احتفظت طويلاً باستقلالها. وما لبثت التجارة والثروة أن نمتا الحضارة الناشئة التي ولدت في مدن حديثة العهد مثل أريدو وأور ولاغاش وأوروك وتل عبيد وكيش.

وكانت المدن السومرية في أوج تطورها عندما حلّت تلك الكارثة الفظيعة: الطوفان وقطعت فجأة تطور تلك الحضارة المدينية الطالعة. كانت هذه الكارثة حقيقية ولكنها لم تَطُل العالم بأسره فهي لم تصب إلا الأودية المنخفضة، وقد ضربت منطقة طولها ٦٠٠ كيلومتر وعرضها ١٥٠ كيلومتراً. وأما الخراب الذي خلفته تلك الكارثة فكان عظيماً. ففي أور وضواحيها طبقة كثيفة من الرمل تبلغ سماكتها ثلاثة أمتار، هي من مخلفات ذلك الطوفان، وهي تشهد اليوم على هذه الكارثة.

إن ذكرى الطوفان، أو على الأقل أكبر كارثة طوفانية غطت بلاد سومر، ظلت حيّة جداً في بلاد ما بين النهرين، «وقد أوحت بالعديد من القصائد التي كتبت بالسومرية وأعيدت كتابتها بالأكادية ودخلت في سياق رواية التوراة... قصة الطوفان واردة أيضاً في ملحمة جلجاميش (بالأكادية)... وفي سفر التكوين في التوراة، إن قصة الطوفان الشبيهة بما ترويه ملحمة جلجاميش تنتهي، وكما يملي المنطق، الى تحالف بين الخالق ومخلوقاته التي نجت»[١٢].

12 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 320, 321.

ب ـ بعد الطوفان

إثر هذه الكارثة أخذت بلاد سومر تأهل من جديد، وعادت الحياة اليها شيئاً فشيئاً. وجاء مهاجرون جدد يمتزجون بمن بقي على قيد الحياة ويساعدون هؤلاء الناجين على ترميم ما تهدم وبعث الحضارة المحطمة. كانت مدينة كيش في المنطقة السامية، والتي نجت من هذه الكارثة، قد أصبحت في مركز الصدارة والسيادة... «وبعد الطوفان عادت الملكية لتنزل من السماء مرة أخرى... وأقيمت الملكية في كيش»[13]. ومنذ هذا التاريخ (حوالي العام ٣٥٠٠) بدأ إلعرق السامي الذي تُعتبر كيش أقدم عاصمة له في بلاد ما بين النهرين، ينازع السومريين الجنوبيين السيطرة على مجمل البلاد. كما أخضعت كيش أيضاً بلاد عيلام. «ومنذ البدء ظهر التنافس السياسي بين سكان الهضبة الإيرانية وسكان السهل النهري، إنه قدر مسلط على حضارة بلاد ما بين النهرين»[14].

إن النشاط البحري المبكر للسومريين تشهد عليه رواياتهم التي تنسب العناصر الأولى لحضارتهم المدينية الى عرق من الوحوش خرجوا من البحر بقيادة البطل وانيس. كما أن أصل العالم في نظر السومريين ناشىء من البحار المؤلهة، ومدينة أريدو على الخليج العربي هي المكان الذي خرج منه العالم من العدم. إن هذه الأساطير تؤكد بلا ريب نشاطاً وحضارة بحريين جد قديمين ولربما قبل الطوفان. وقد ظهر العديد من المدن ـ الدول البحرية والتجارية التي سعت لبسط سيطرتها أو تفوقها الواحدة على الأخرى. وأما في أوروك فإن حب البحر يجعل من دوموزي إله النبات ملكاً صياداً بحرياً.

وأما مدن سومر التي بعثت بفضل البحر، فقد نجحت بالتخلص من نير ساميي كيش وفرضت هيمنتها على المدن الأخرى مداورة. «فكيش هزمت بالسلاح، والملكية انتقلت الى إيانا (معبد أوروك)». تلك هي العبارة النموذجية التي تحدد عملية انتقال الهيمنة من هذه المدينة الى تلك. فلم نعد هنا في مركز سامي... «إن أوروك (اسمها اليوم وركا) هزمت بالسلاح، والملكية انتقلت الى أور»[15]. ونصل الى حوالي العام ٣٠٠٠ ق.م.

13 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 322.
14 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 324.
15 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 325, 331.

V. لبنان في الفترة الانتقالية للتاريخ أو بلاد نيغا
جبيل ـ بيبلوس نواة فينيقيا الغد

١ ـ الجبيليون، منذ الأصول حتى العام ٣٠٠٠

أ ـ حتى العام ٣٢٠٠

لا أحد يعرف الاسم الذي استخدمه السكان الأصليون في لبنان خلال المرحلة الانتقالية للتاريخ للتعريف ببلدهم. ولم نكن نعرف اسم كنعان واسم لبنان إلا في حوالي العام ٢٠٠٠ واسم فينيقيا الذي هو كلمة إغريقية إلا خلال الألف الأول. ويتضح لنا من النصوص المصرية القديمة أن المصريين كانوا يطلقون على منطقة جبيل اللبنانية اسم نيغا فيما كانوا يعرّفون مدينة جبيل نفسها (بيبلوس لاحقاً) باسم كيبين. أما لغة هؤلاء السكان فبقيت أيضاً مجهولة منا.

وقبل العام ٣٥٠٠ كان سكان نيوليتيون متوسطيون قد طمسوا السكان الباليوليتيين الأصليين الذين أشار موريس دونان الخبير في حفريات جبيل الى أنهم ينتمون الى «المجموعة الأوراسية». ومهما يكن من أمر، فحوالي العام ٣٥٠٠ كان النيوليتيون المتوسطيون في جبيل وأسوة بمعاصريهم في مصر وبلاد ما بين النهرين يستخدمون في آن واحد أدوات حجرية وأخرى معدنية. وقد وصفهم م. دونان بأنهم: طِوال الرأس، قصار القامة. وقد أظهرت لنا الحفريات هياكلهم العظمية النحيلة. كانوا يعيشون في أكواخ مستديرة ويدفنون موتاهم في جرار فخارية كبيرة حيث كان الجسم يطوى على نفسه بطريقة غريبة. وكان طعامهم الأساسي مؤلفاً

من الشعير والزيتون ولحوم الخراف والماعز. ويشهد بيض النعام المثقوب في طرفه على ظاهرة توجسهم من الأرواح الشريرة. كما تدل الأشياء التي عثر عليها في أضرحتهم على اهتمامهم بالحياة بعد الموت[١٦].

كان هذا العرق المتوسطي يعيش على شواطىء المتوسط وجزره حيث تستمر سلالاته. وتشهد آثاره عليه في مصر منذ العهد الإنيوليتي، وقد بلغ رواده بلاد سومر في مطلع الأزمنة التاريخية.

ب ـ حوالي العام ٣٢٠٠

إختفت الحضارة الإنيوليتية في جبيل على أثر دخول تقنيات أكثر تطوراً هبت عليها من الخارج. ويصف م. دونان بدقة بالغة «الترسب العرقي» الذي كان البشرق الأدنى يومها مسرحاً له.

«حوالي العام ٣٢٠٠ دخلت مصر وبلاد حوض الفرات التاريخ في وقت واحد ومعهما دينهما وكتابتهما الخاصة... وفي حين كانت حواضر بلاد ما بين النهرين ومصر تنهض على طمي الأنهار، كانت الحياة المدينية في بداية عهدها في فينيقيا وكنعان. وفي بيبلوس كانت الإنشاءات من مقابر ومساكن إنيوليتية تنم عن حضارة متطورة. فقد طغى فيها نمط هندسي جديد. كما أن استخدام الفرن مهد السبيل الى الاختراعات الصناعية الأولى. إن هذا التقدم التقني وهذه التغييرات الاجتماعية تشكل حركة تجديد جوهري، من المحتمل أن تكون قد غيرت جذرياً حياة السكان. بالخلاصة، لقد بدأت بشرية جديدة»[١٧].

إن العناصر العرقية الجديدة المزودة بتقنيات جديدة ومتفوقة والتي غمرت يومها المتوسطيين في جبيل، جاءت من الشمال، من المناطق المنجمية في أرمينيا والقفقاس[١٨]. فلا بد من البحث عن التركيب العرقي لسكان لبنان الأقدمين إذن، من خلال بقايا أعراق السكان الباليوليتيين الأصليين الذين طغى عليهم متوسطيو العهد النيوليتي ثم شماليون أدخلوا إلى لبنان حضارة مدينية.

16 Maurice Dunand, *Byblia Grammata*, p. 1,2.

17 M. Dunand, *op. cit.*, p. 5.

18 M. Dunand, *Op. cit.*, p. 6.

٢ ـ تكوّن حضارة الجبيليين (٣٢٠٠ ـ ٣٠٠٠)

بعد العام ٣٢٠٠ تطورت الحياة المدينية والنشاط في جبيل بسرعة. فالعرق الجديد المتمتع بالمهارة والحيوية أخذ يستثمر الغابات التي كانت تغطي البلاد يومها وتبدو وكأنها لا تنضب. وكانت مصر المفتقرة إلى الأخشاب لبناء سفنها وإلى خشب الأرز لصنع توابيتها والمنتجات الخشبية للتحنيط قد أصبحت زبوناً هاماً لجبيل، فنما التبادل التجاري باتجاه ضفاف النيل وأنهار بلاد ما بين النهرين معاً. وفي الوقت نفسه، لقد اجتذب ازدهار جبيل أنظار المصريين: فالتقديمات التي كان يرسلها ملوك ثينيس المصريون إلى معابد جبيل هي خير شاهد على ذلك ، فضلاً عن آثار الأديان المصرية العديدة جداً في الميتولوجيا الجبيلية.

وهكذا تثبت حضارة جبيل المركبة أنها قادرة على استقبال عناصر قادمة من كل المناطق المجاورة، وطبعها بطابع خاص.

حوالي العام ٣٠٠٠ اقتصرت هجرة الساميين إلى جبيل على التغلغل الفردي وغير المعروف. وابتداء من مطلع الألف الثالث، طفقت الهجرات السامية بشكلها الجماعي قادمة من الهضبة العربية. واصطدمت بعد العام ٢٠٠٠ بغزاة آريين منحدرين من الشمال. وكان طبيعياً أن يترتب على حركة المد والجزر بين هاتين الموجتين المتناقضتين، تغيير مستمر للتركيب العرقي والاستقرار الثقافي في المنطقة الجبيلية.

«وإذا كان المحتلون الشماليون قد حملوا معهم التنظيم المديني والصناعات التي تجعلها الحياة الإجتماعية ممكنة، إلا أن السامي المعدوم الحضارة المادية أتى بجعبة فارغة، بيد أن لغته وفلسفته، أي أفكاره الدينية شكلت تقديماته إلى الحياة الجماعية التي تبنتها بدرجات متفاوتة. فمصر لم تبقِ سوى شتات. وأما في بلاد ما بين النهرين وبلاد كنعان فقدر لهذه العناصر الدخيلة أن تسيطر في النهاية. هذا هو سر تفوق الروح على المادة الذي بوتق شعوب هذه البلدان إلى درجة جعل أصولها المتفرقة تمحى»[١٩].

وبالفعل غدت البلاد الشرقية في الألف الثالث ـ بإستثناء مصر ـ كلها سامية. برغم الإختلاط اللاحق وفي ظل مختلف أنواع السيطرة إحتفظت السامية بسيادتها

19 M. Dunand, op. cit., p. 7.

اللغوية والثقافية. حتى أن تعريب الشرق حوالي نهاية الألف الأول بعد الميلاد لم يغير أبداً هذا الطابع. فالعرب أصلاً، وهم أبناء جزيرة العرب الصحراوية، ليسوا سوى فرع سامي، تماماً كسائر الساميين الآخرين، الذين هاجروا قبلهم وعلى دفعات من تلك الهضبة العربية نفسها.

بيد أنه يقتضي التنويه بأن تحول الهلال الخصيب إلى السامية لن يغيّر إلا سطحياً وظرفياً الطبائع الوراثية أو القومية لدى مختلف الشعوب التي غدت سامية. وتحت تأثير البيئات الجغرافية المتفرقة في هذه المنطقة، فإن الطبائع الجوهرية للمجتمعات التي غدت سامية، فضلاً عن طبائع المهاجرين الساميين سوف تستعيد مع الزمن الطابع المميز لمختلف الشعوب الأصلية.